سيدي الأربعين - أبو كل أولياء الله الصالحين - أوزوريس

صابر العادلي

بودابست

دراسة في التوفيق الديني العقائدي، فرضيتها الرئيسية أن "سيدي الأربعين" الولي الذي تنتشر أضرحته ومزاراته في كل ربوع مصر والذي خرج من عباءته سائر الأولياء المنتشرين في كل ممالك الإسلام، ما هو إلا المعبود المصري "أوزوريس" الإله الذي كان رمزا لكل ما هو خير وطيب. والمتوحد في النيل ومن علم المصريين الزراعة والحصاد وقادهم من الهمجية إلى التمدين وعلمهم الموسيقى والغناء ومن وهب وهو ميت إيزيس ابنهما "حورس" الإله المنتقم من عمه إله الشر "سخت" لاغتياله أبيه .وهو "رب الخلود" و"سيد الأخرة" و"كبير القضاة" في قاعة العدالة "معات".بعد أن خصب أرض مصر بأشلاء جسده الإلهي.وتسعى الدراسة في إثر أوزوريس محاولة تقصي التحولات التي طرأت على الأسطورة لتصبح ممارسات. وكيف توسلت بالفولكلور لتأمين سيرورتها ولتصبح في النهاية جزءا من التركيب "الجيني" الذهني والروحي للمصريين.

من ظاهر اللقب يبدو تفرد صاحبه. فهو ليس باسم علم "أحمد البدوي" مثلا. وليس منسوبا إلى كرامة: "الطيار". وليس بولي فئة بعينها ولا راعيها "أبو الحجاج" وليس صفة "العريان" ولي مصر العتيقة، والذي أصبح "سيدي محمد العريان" بتأثير إسلامي. وإذا أخذنا بظاهر التسمية فإن ولينا، ولابد يحتل مكانا في جماعة لا يقل عدد أفرادها عن أربعين. ولكننا نود هنا أن نؤكد على أهمية أن تبقى في الذاكرة أن التسمية الأصلية – حسب افتراضنا هي "سيد الأربعين" أي مضاف ومضاف إليه. وأنها – التسمية – كانت تدل على رئيس جماعة أو هيئة أو مجلس مكون من أربعين عضوا. وإنها حرفت مع الزمان إلى "سيدي الأربعين". إن هذا التحريف ولابد قد وقع تدريجيا عندما بدأت اللغة العربية تزيح اللغة القبطية من دوائر الخطاب اليومي والإداري إلى ساحات الكنائس في القرن الثامن عشر. ومهما يكن الأمر فإننا إزاء قضية معقدة من محورين يرتبطان برقم "أربعين". وأنه لابد لنا من تقصي مغزى الرقم ودلالاته. ودون الخوض في مفازة الأرقام، فما من رقم إلا وأضفى عليه العامة والخاصة الكثير، على أن رقم "أربعين" يحظى بمكانة عظيمة حقا فأحمد أمين يرى أن "الأربعين: كناية عن الكثرة" وليس المقصود بها العدد المحصور .وأنهم يدعون أنه "أربعين" لأن له أربعين مقبرة. وهو بذلك يعني الأضرحة المنتشرة في الوجه البحري من مصر خاصة والمنسوبة لـ"سيدي الأربعين". ويضيف "أنه إذا وجد صاحب البيت أن الناس تبول في الركن أو في حارته ادعى أن في هذا المكان "سيدي" وبنى حوائط" (أمين: القاموس 241).

وهذا يدل على أن هناك توجه جمعي لدى الناس لتوقير واحترام كل ما له صلة بالولي "الأربعين"، فضلا عن السهولة المدهشة التي يظهر بها ولي – ضريح ولي – على وجه الدقة. وهذا ما يدفع إلى الظن في وجود تقاليد سالفة تمتد الممارسة عليها. أي تشييد بناء والقول بأنه مدفن لولي.

ولسنا بحاجة هنا للتوكيد على الدور البالغ الذي يلعبه رقم "أربعين" في مفاهيم المصريين عامة، ولن نورد هنا ثبتا بالمراسيم والطقوس المرتبطة بانقضاء أربعين يوما على وقوع حادث ذي مغزى في حياة الفرد. كتعميد الأطفال، وذهاب الزوجة لزيارة أهلها لأول مرة، وانقضاء فترة النفاس، "وكمل له أربعين يوما لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين وبكى عليه المصريون سبعين يوما" (سفر التكوين 50-3 الخ).

على أن أهم المراسيم حقا هي: انقضاء أربعين يوما على الوفاة، تحديدا حلول "جمعة الأربعين". وهي الممارسة التي لا يهملها مصري أيا كان وصفحة الوفيات في أية جريدة مصرية، "الأهرام" خاصة، لهي برهان ووثيقة. حيث تحتل أخبار الاحتفال بـ"الأربعين" حيزا قد يفوق أخبار "النعي" مساحة واهتماما ويثور السؤال لماذا؟ وإذا صح جوابنا، آخذين بعين الاعتبار كل ما أوردناه، فإن فرضيتنا تصبح مسلمة.

THE ARABIST. BUDAPEST STUDIES IN ARABIC 26-27 (2003)
https://doi.org/10.58513/ARABIST.2003.26-27.13

إن المدخل إلى فهم ظاهرة الأولياء – برأينا – مرتبط أشد الارتباط بفهم الديانة المصرية القديمة. ولابد من الأخذ في الاعتبار بأمرين على قدر كبير من الخطورة، أولهما كيفية نشأة الإله وسطوع نجمه في العصور قبل التاريخية، وثانيهما: ضرورة مقتل الفرعون – الإله ودفن بعض أشلائه في الأرض تأمينا لخصوبتها.

في البداية كانت مصر عبارة عن ولايات صغيرة منفصلة، وكان لكل ولاية زعيم وإله معبود في صورة حيوان وكان نفوذ هذا المعبود أو المعبودة مطلقا ولكنه لا يتجاوز نطاق ولايته قط. وقد كان هذا هو توحيد هذا الزمان. وكان النصر أو الهزيمة في الصراع مع الولايات المجاورة ينسحب على المعبود وحده. وإذا اندمجت الولايات – بمرور الزمان – سلميا اندمجت الآلهة هي الأخرى مكونة عائلات، حسب جنسها وسنها. وإذا انهزم الإله بانهزام شعبه، صار مخوفا وانحط شأنه (مري 209-208). ومن ناحية أخرى كان الملك – الفرعون يضطلع بأجل المهام خطورة: أمن قومه وعيشهم، لذا ولا عجب، وحدوه بالإله، وتمتع بسلطان إلهي بعقيدة حلول روح الإله به ويصبح هو القوة الواهبة للحياة. وبالطبع تنطوي هذه العقيدة على ازدواجية، فالملك رجل يتحرك ولكنه يحوز الروح الإلهية المانحة للخصوبة. والروح هي الأخرى، مثلها مثل الجسد يعتريها الوهن والشيخوخة. وما دام الملك – الإله شابا وكذا روحه فهو قادر على الوفاء باحتياجات قومه والروح رهينة بما يعتري الجسد، فإن هلك هلكت معه، وبهلاكها يهلك العالم، ومن ثم كان لا بد من تجنب ذلك المصير بتأمين سلامة الروح الإلهية ونقلها إلى جسد شاب موفور العافية والصحة. ولا يكون ذلك إلا باستباق موت الملك الواهن بقتله وقبل أن تشيخ الروح أو تموت. ولابد أن يجري قتل الإله بكل مظاهر الاحترام والتقديس. ولسنا بحاجة إلى القول بأنه ومع مرور الزمان جرى خرق هذه المراسيم بقتل بديل يتولى قبل مقتله بزمن قصير السلطة ويلقى هو الآخر مصيره بكل مظاهر الإجلال المرعية عند مقتل ملك إلهي. وتشير كل التقارير المتاحة إلى أن كل الأطراف المعنية قد اضطلعت بدورها دون تملص. وكان مقتل الإله – الملك يتم بطرق ثلاثة: بالذبح إذا كان إهراق الدم على الأرض هو سبيل الخصوبة. ثانيا بالحرق إذا كان نثر الرماد على الحقول هو السبيل إلى ذلك. ثالثا بالخنق شنقا أو إغراقا وبقطع الجسد وبنثر أشلاء في أنحاء البلاد (فريزر 349، مري 228-225). وهذا هو بيت القصيد، وبرهان صحة فرضيتنا.

مقتل أوزوريس (خنقا) ونثر أشلائه في أرض مصر (دفنها): كما سبق في استهلالنا، فإن مكانة أوزوريس تكمن في كونه الإله الخير المتوحد بالنيل، والذي يدين له المصريون بكل ما أحرزوا من رخاء ورفاهية. وهو من علمهم استزراع الحنطة فأخرجهم من البربرية ومنعهم من أكل لحوم البشر وابتكر لهم الأبجدية وسن لهم الشرائع وقهر الأعداء. وأسس المدنية، علمهم الفنون والرقص والغناء. وحسب الفلسفة "الأوهورية" نسبة إلى يوهيمروس – والتي تفسر الأساطير القديمة على أنها أحداث تاريخية قديمة، وأن الآلهة كانت أصلا بشرا تفوقوا بأعمالهم على العاديين من الناس فألهوهم بعد موتهم وعبدوهم. وبهذه الطريقة أمكن إنقاذ عدد كبير من الآلهة الوثنية الأولى الذين تحولوا إلى أولياء وأبطال وقديسين. ومن هنا كان التصور أن أوزوريس كان إلها وفرعون في نفس الوقت. وحسب بلوتارخوس – مرجعنا الرئيسي – فإن "ست" الشرير، شقيق أوزوريس لما رأى من منزلة أخيه في قلوب الناس ومنفوعا بحقده، يقوم بتدبير المكيدة الشهيرة، بإعداد سحارة نفيسة "تابوت" ويعلن في محفل إلهي أنها – السحارة – من نصيب من تتفق وقده – وكان قد فصلها على مقاس أوزوريس –. الذي عندما جاء دوره لتجريب السحارة قام المتآمرون بإغلاقها عليه وإحكام سدها بالرصاص وإلقائها في النيل [إنه موت الإله خنقا] وحسب الأصول. إن المتوحد بالنيل يعود إليه. ولا يبقى إلا تقطيع جثمان الإله ثم دفن أشلائه في أرض مصر. وحسب الأسطورة فإن ذلك لا يجري فورا، فالسحارة تأخذ طريقها إلى البحر عبر أحد أفرع النيل وتستقر على شاطئ "بيبولس" مرتكنة إلى جذر شجرة هائلة من الأثل أو السرخس وتتوحد السحارة بالشجرة. ويعجب ملك المدينة بالشجرة فيأمر بقطعها لتصبح عمود قصره. إن هذا الجزء من الأسطورة يبدو غريبا ولكنه ليس – برأينا – حشوا وربما أضيف ليؤكد على ذيوع عبادة أوزوريس في المنطقة كلها وليفسح المجال لدور إيزيس الشقيقة المحبة والزوجة المخلصة، إعلاء لقيم جديدة كانت ولابد قد بدأت تتأصل في المجتمع المصري وقتها، حب الأخت ووفاء الزوجة. ومن المثير حقا أنه وبعد تغيير المصريين لعقائدهم الدينية وتحولهم إلى الإسلام وبأكثر من ألف عام فإن المصريات يدعين المقربين من الرجال "يا حبيبي يا خويا" ولم يكن هذا يثير امتعاض أحد ولا دهشته. ويبدو وكأن المصريات بهذا النداء كن يستدعين – غير واعيات – ذكرى إيزيس الملتاعة وهي تفتش عن جثمان شقيقها. كما وتهتف المصريات عند الشدة "يا خويا". وإن كن

محرومات من الأخ. وفي الستينات من القرن الماضي كانت الأغنية الأشهر في مصر والعالم العربي هي "يا حبيبي يا خويا يا ابن أمي وأبويا" لـ"فايزة أحمد" ورغم مضي أربعين عاما على وفاة المغنية فما زالت الأغنية تثير عواطف الناس. إن الأسطورة الأوزوريسية وحداد ايزيس قد ضمنا بقاء وسيرورة لا نظير لهما في حداد الأخت المصرية لأخيها، والذي لا مثيل له عند أي من الشعوب عنفوانا وحدة، والوصف الذي أوردته" (بلاكمان 101–103) عن حداد فتاة قبطية – الأمر الذي ينفرط له القلب حقا – ليصور وبصدق وإن بعد الزمان كيف تحولت الأسطورة إلى ممارسات. فلقد بكت "عست" (اسم إيزيس في المصرية) أخاها "أوسير" (أوزوريس) أحر البكاء حتى قيل أن النيل قد فاض بدمعها. وتحولت "عست" ومعها أختها "نفتيس" إلى ندابتين وهكذا ظهر تقليد استخدام الندابات عند الحداد (مهران 412) وإذا كنا بصدد الندابات المحترفات، فإننا لا نعدم المراثي التي – برأينا – تحتفظ من ذكريات الأسطورة الأوزورية الكثير.

"يا خويا يا بن أمي وابويا يازرار توبي يا قمع سكر أحلي به ريقي" (جمع المؤلف 1960) وجمال النص يكمن في إيجازه البليغ ومجازه المعبر، فزر التوب رمز للأمن والحماية والعصمة وأخيرا الستر وقمع السكر رمز لكل ما هو عذب وحلو ناهيك عن تشخيص العلاقة: يا ابن أبي وأمي. ثم حالفني الحظ فسجلت في 1970 من محافظة البحيرة أغنية العمل الآتية:

يا ملاجيني يا خويا الا الحر كاويني   كوى وكاوى

وخلى دمعتي شجه   وحتى الحزام الدهب ميل علي الشجه

والنص أبلغ من أي تعليق، وكانت المؤديات صبايا يقمن بجمع لطع دود القطن. أنه التوسل بالأخ (الأسطوري أوزوريس) وهو رب الحصاد أن يهل فقد دمعت العين وارتخى الحزام (رمز المكايدة) رمز مناعتها ودلالها في آن. ثم ما لبثت المؤديات أن تحولن إلى النص التالي:

أسمر عليلي   آه لو أطوله آه لو أطوله   أسأل على تربته   اتمد أنا في طوله

يجي الملايكه   يسألوه   أرد أنا مسؤوله

والعليل هنا هو أوزوريس الميت مجهول القبر (السحارة التي اتخذت طريقها إلى شاطئ فينيقيا) ثم في الأخير تتوحد الأخت في جثمان أخيها الميت وهو الواقعة الأسطورية في المشهد الثاني من أسطورة أوزوريس وإيزيس والتي لم يدونها بلوتارخ فحسب بل وجسدها النحت المصري الفرعوني في التمثال الفريد الذي يمثل أوزوريس ممددا على محفة (ميتا) وإيزيس تعانقه وهي في شكل طائر (من أبيدوس) (مهران 412).

والمشهد الثاني من الأسطورة هو رحلة الأخت الوفية، الزوجة المخلصة باحثة عن زوجها وهي لا تني تلحف السؤال عن وجهة السحارة. عبثا ولا يأتيها جواب إلا من أطفال يلعبون. وتلقى هذه الواقعة مكانها وتقبع في الوجدان المصري. وتصبح قدرة الأطفال على التنبؤ مضربا للأمثال "خدوا فالكم من عيالكم" (تيمور 1145) بل أن بلوتارخ نفسه قد أورد ما لاحظه من إيمان المصريين بقدرة الأطفال هذه.

وتحتال إيزيس لتحصل على العمود الذي يضم جثمان أوزوريس – لقاء عنايتها بابن الملك – وتعود به إلى مصر ولقد أصبح هذا العمود وما زال حتى يومنا هذا المعادل الموضوعي للخصوبة "الذكر" فحسب إحدى التنويعات فإن العمود اياه إنما ضم "قضيب" أوزوريس" وهو نفسه ما يطلق عليه اليوم "عمود السواري" الذي ينتصب قائما عند الاحتفال بمولد الولي (نظير159). ومن العجيب اعتقاد العامة أن ساري السيد البدوي ينحني للنبي عند زيارته لمقام السيد بمناسبة مولده (عبده 1995).

العمود: هناك طقس سحري يجري بعد إغلاق الباب على العروس والعريس – كنت بنفسي شاهدا – وحل الصمت المتوتر، وأقلعت النسوة عن الزغاريد والأطفال عن الزياط، وساد الترقب المتوجس. إنها لحظة تأمين الخصوبة. وأفسح الطريق لكوكبة من لدات العريس، حاملة على أعناقها عمود خشب هائل عتيق، أقرب إلى عمود التلفون. وانتصب العمود على صدور الفتية قائما. وراح هؤلاء يدقون به عتبة المنظرة في إيقاع منتظم لا تعوزه العاطفة المتأججة، ولا الاستغراق (هيلا هوب يا عريسنا دب) ولم يلبث شباك المنظرة اليتيم أن انفرج عن رقعة من شاش أبيض مخضبة بآيات عفة العروس وتلقفتها أيدي أخوتها لينطلقوا بها في مظاهرة صغيرة في القرية صائحين "شرفنا عالي شرفنا مصور شرفنا هلال منور". ثم أودع العمود الجرن من جديد حتى كان مولد "سيدي الأربعين"

فانتصب العمود من جديد لأسبوع كامل في الساحة التي يطل عليها المسجد الذي يحمل نفس الاسم. والعمود في حالتنا الأولى كان العنصر الرئيسي في ممارسة سحرية تشاكلية مؤمنة للخصوبة تقوم على محاكاة الفعل الجنسي العمود فيها "قضيب أوزوريس" وحلق باب المنظرة هو فرج العروس ومن أسماء القضيب في العربية جذر، دقاق. وهذا ما لم يفطن إليه فريزر (500-501) عند تفنيده فرضيته عن أوزوريس كروح شجر وإله خصوبة وموتى. فالعمود يلعب دورا بارزا في مراثي أرباب العائلات وشيوخها. واعين بأنه قد يكون مجرد كناية عن دعامة البيت:

يا عمود بيتي والعمود هدوه يا هل ترى في بيت مين نصبوه
يا عمود بيتي والعمود رخام يا هل ترى في بيت مين انقام

(مرسي 73) من المديد المصري الذائع مراثي رب العائلة.

المشهد الثالث: تعود إيزيس بجثمان أخيها – زوجها – وتتركه في أحراش الدلتا وتذهب لإرضاع ابنهما "حورس". فيما يطارد "ست" إله الشر خنزيرا بريا في ليلة قمرية، فيعثر على التابوت الذي يضم رفات أخيه فيمزقه إربا (أشلاء) اثنين وأربعين شولا (بعدد مقاطعات مصر وقتها) أو أربعين تسهيلا وتقريبا. وفي تنويعة أخرى أربعة عشر شولا. ويفرقها على أرض مصر. وهنا تتفرع الأسطورة فرعين، يؤدي كل منهما وظيفة لا غنى عنها. الأولى إخصاب الأرض بدفن أجزاء من جسد الإله – الفرعون فيها (الأرض) ومراجعنا بهذا الخصوص جد كافية وقاطعة. فبردية اللوفر رقم (3079) تضم سجلا بأماكن دفن رفات أوزوريس (الرأس والعمود الفقري والساقين الخ). وطبقا لنقش معبد دندره فإن العمود الفقري مدفون في بوصير، والرأس في ممفيس، والقلب في أتريس، والرقبة في سيتو ومن ناحية أخرى تعرف قلعة أفاريس في نصوص أحمس بن "أبانا" تحت اسم "جت وعرت" (بيت الساق) وقد أشتق اسمها كما يقول مانيتون من [فكرة دينية] قد تكون محرابا دينيا عبدت فيه إحدى مخلفات أوزوريس وكانت تقع في المكان المعروف حاليا باسم "تل اليهودية" (مري 74). ويرأينا أن هذا هو أصل ظهور المدافن المزعومة والأضرحة المنسوبة إلى ولي بعينها المتواجدة في أماكن شتى. ومن حقنا أن نفترض أنه في إبان العهد القبطي كان من ألقاب أوزوريس "ذو الأربعين محرابا" أو ضريحا أو مدفنا. ومع التحول إلى الإسلام جرى على اللقب تحريف وقصور ليصبح "سيدي الأربعين" تسترا على أوزوريس في ظل الإسلام التوحيدي. ونكون بذلك قد أجبنا أيضا على السؤال عن سر كراهية المصريين البالغة – وغير المبررة تماما – للخنزير والتي كانت تدفع بالمصري إلى إلقاء نفسه وهو بملابسه في النيل إذا لمس خنزيرا فيما أورده أبو التاريخ (هيرودوت، الكتاب الثاني47) وقبل التحريم الإسلامي بآلاف السنين .إنه الخنزير الذي قاد سخت (ست) إلى أوزوريس الثاوي في تابوته في أحراش الدلتا فيمزقه إربا.

إن تقاليد دفن أشلاء الزعماء والملوك والآلهة (الأسطورية) بعد مقتلهم – تحديدا أوزوريس – ما زالت ذكراها حية في أذهان الناس، فالشيخ "حسان" من قرية "أكوا" محافظة الشرقية ظهر لأحد الميسورين في القرية وقال له: أنا مدفون في الحتة دي، بذراعي مدفون في الحتة دي، "قالوا إحنا حنحفر، لو ما لقناش مش حنبني لك ضريح، وبعدين حفروا لقوا ذراعه، قالوا دا كان بيحارب وبعدين طار زي سيدنا الحسين كده جاء هنا في مصر وعملوا له ضريح" (السعيد 417) والفرق بين نص أحمس ابن أبانا ونصنا هذا يتمثل في البعد التاريخي وامتزاج التقاليد.

والمشهد الثاني للأسطورة الأوزورية هو بعث الإله (القيامة). فبعد قيام "سخت" ست بتمزيق جثمان أوزوريس تقوم إيزيس (سيدة السحر) بلم أشلاء أخيها بمساعدة أختها نفتيس وتجبر بسحرها الإله آمون على الإفصاح بالكلمة المقدسة (اللوجوس) فتنطقها. وتدب الحياة في الجسد الإلهي (القيامة) ويتحول أوزوريس إلى إله للموتى ويتصدر محكمة "العدالة" معات ومعه هيئة من المحلفين يمثلون أقاليم مصر الأربعين. ويلقب بـ"سيد الأربعين" [بالإضافة] التي تتحول مع الزمان إلى سيدي الأربعين في ترجمة المصريين لإرثهم الديني إلى العربية. وحيث "يترافع الميت عن نفسه أمام محكمة أوزوريس: انظر إلي في حضرتك "يا سيد الغرب". ليس في جسمي شر ولم أكذب متعمدا وقناعتي الشخصية أن هذا اللقب وراء التسمية "سيدي المغربي" وأن اللقب لا يعني القادم من الغرب، المغرب بل هو أوزوريس نفسه .سيد الغرب، العالم الآخر. وقد يكون ظهور هذه المسميات من قبيل إمعان المصريين في التستر على آلهتهم وإنقاذا لها. في ظل وصول الإسلام التوحيدي الذي لم يلبث أن راح هو الآخر يفرز أبطاله وأولياءه. كما سبق وأوضحنا أعلاه.

وثمة إفادة على قدر كبير من الخطورة لم تلق بعد القدر الكافي من اهتمام علماء المصريات أيا كانت جنسيتهم، وقد أوردها "المقريزي" في الخطط: "ويزعمون أن النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقي فيه النصارى تابوتا من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى. ويكون ذلك اليوم عيدا ترحل إليه النصاري من جميع القرى، ويركبون فيه الخيل، ويلعبون عليها. ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغي ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العي" (المقريزي الخطط 69).

والنص وثيقة خطيرة الشأن حقا في مجال الأنثروبولوجيا (الدينية) وعلم الأساطير. فها نحن نرى كيف تحولت الأسطورة الأوزورية إلى ممارسات وشعائر. وهاهم المصريون وحتى بعد سبعمائة وخمسين سنة من دخول الإسلام كانوا يحيون ذكرى معبودهم الخير بإعادة تمثيل الأسطورة (مقتل الإله خنقا) بوضع رفات قبطي، ربما مومياء (رمزا لجسد أوزير) في تابوت (سحارة) وإلقائه في النيل. وكان ذلك في عقيدتهم شرط استمرار جريانه أي تأمين خصوبة الوادي وكل مصر. وأن إعادة تمثيل هذا المشهد واكبه احتفالات خصوبة، ما كان للمقريزي ابن زمانه أن يتفهم كنهها فأدانها من منظور أخلاقي. ولنا في إفادة "ابن" (260) عن طقس الخصوبة عند "مغسل السلطان" بالقلعة شاهدا. ذلك أن المحكوم عليهم بضرب أعناقهم كانوا يغسلون على منضدة حجرية هناك، إلى الجنوب من ساحة الرميلة. وكان ماء غسلهم الملوث بدمائهم يتجمع في حوض تحت المنضدة. وكان على الراغبات في الحمل، المحرومات منه أن يخطون جثة المعدم سبع مرات صامتات ليصبحن حبالى. والمثير حقا أنه بعد التحول إلى الإعدام بالشنق فإن عند التشريح في مستشفى القصر العيني العتيد في القاهرة تحول إلى مسرح لطقس الخصوبة هذا. وانتهي الأمر الآن بالراغبات في الحمل والمحرومات منه إلى الاكتفاء بتعليق عقلة إصبع من رفات قبطي في الرقبة (قارن بلاكمان 87). وقصارى القول أن بقايا ذكري مقتل الإله أوسير – رمز الخصوبة– ونثر أشلائه ودفنها تأمينا للخصوبة جعل المصريون يقاربون بين ذكري ميتة أوزوريس العنيفة، وميتة هؤلاء المضروبة أعناقهم ذلك أن المضروبة أعناقهم قد أصبحوا أوزوروسيين وأن موتهم البشع هذا كان يستدعي في أنفس المصريين ذكرى مقتل المعبود الطيب (سحر تشاكلي). وأصبح أي جزء من رفات قبطي مصري علما عليه، أي أوزوريس – معادلا موضوعيا.

ولا نعتقد أن هناك قالبا أنسب من المراثي (العديد) للتعبير عن المأساة الإلهية – البشرية التي نحن بصددها. ونماذجي الواردة هنا لا أزعم بخلوها من المثالب في ظل ظروف المادة المتاحة والتي لا تعدو كونها عينة فحسب (أرشيف المركز التابع لأكاديمية الفنون – مصر) أو النذر اليسير في شتات المنشورات. ولا يخامرني أدني شك في أن النص التالي هو أجمل ما خلد فولكلورنا من ذكري أوسير. فيما لا يربو على الثلاثين كلمة يجسد النص في بلاغة نادرة الأصل الإلهي لأوسير ثم تبوئه العرش إله زرع وضرع وخصوبة فندبه من قبيل شقيقتيه ايزه (إيزيس) أو عست ونفتيس أحدهما تنعيه شفاهة والأخرى بالمراثي المدونة. وأول من جمع هذا النص هو المرحوم عدلي إبراهيم، الباحث بمركز الفنون الشعبية.

يا شيخ يا ابن الشيخ	على الكرسي أعد	(يا ذا الأصل الإلهي على العرش استوى) قعد
يا داود الدهشان	ما بعدك ولد	(ليس هناك من يضاهيك مكانة)
يا أيله أولي	عليه بالحلاه	(يا قاتلة – المعددة .في حلقة العزاء) – قولي اندبيه
يا آرية خط القلم	بالورقة	(يا قارئة ما خط القلم على الورق) القدر
مات والمنشاش	في ايده	(صولجان أوسير عادة الوجهاء من حمل المنشات)
والبقر بتنعي	عليه	(حتى الأبقار نعته – إله الخصوبة – الضرع)
يا ما كربل	يا ما غربل	(لكم ندف القطن وضربه وغربل – إله زرع)
يا هال التبن	عليه	(لكم انهالت عليه أكوام التبن – إله حصاد)

ولا حاجة بشرح أو تأويل فالنص أفصح وما هو إلا توصيف للصورة التي يظهر بها أوسير على عرشه في قاعة العدالة (معات). ويكتمل نصنا هذا حقا بالنص التالي

خلوا الكبير في مقعده نايم لجن يتم الشور عليه نايم (دعوه على عرشه فلا غنى لنا عن مشورته)

خلوا الكبير في مقعده محتال لجن يتم الشور عليه دوام (لجن أي من أجل أن تصل الأخذ بحكمه)

والنص يدعو إلى ترك "الكبير" على عرشه نائما. إنه أوسير الإله المحنط سيد "معات". أما النص التالي فهو يرسم قاعة معات ودخول الميت بين يدي الإله

ابتسم الليل للحجرة وهو داخل اتمنى لقى بنات الحور وهو داخل لقي الملوك مقابلينه وهو داخل

تراها أي حجرة هذه إلا "معات" ومن تراهم الملوك إلا الأربعون ملكا في معية أوزير.

وكما قد سبق وأن بينا فإن هذه الورقة ما هي إلا مدخل إلى نبش وغربلة تراكم ثقافي لا نظير له في ثقافة أخري ونحن أدري أكثر من غيرنا بجوانب القصور فيها .وهذا لا يمنعنا – حتى وإن وصفنا – بضم الواو – بالتعسف والتعصب، من الزعم من أن العامية المصرية ما هي إلا البوتقة العظيمة التي صهر المصريون إرثهم الفرعوني باعتباره السدة لنسيج ثقافتهم بلحمة كل ما حملت إليهم سفن الغزاة وجحافل الباحثين عن الماء والمرعي: هكسوس وإغريق وفرس ورومیون حتى الفتح العربي.

المصادر والمراجع

أمين، أحمد. 1953. قاموس العادات والمعتقدات والتعابير الشعبية. القاهرة.

بلاكمان، وينفريد. 1995. الناس في صعيد مصر. ترجمة أحمد محمود. القاهرة.

تيمور، أحمد. 1986. الأمثال العامية. القاهرة.

السعيد، سوزان .2000. "الهوية كما تعكسها الدراما الشعبية في فكر الفلاح الإعتقادي" في: الثقافة الشعبية 2 المركز الحضاري لعلوم الإنسان والتراث الشعبي آداب جامعة المنصورة.

عبده، علي عرفه .1995. "موالد مصر المحروسة بين الماضي والحاضر" في شهرية "القاهرة" عدد 156.

فريزر. 1972-1974. الفولكلور في العهد القديم. . ترجمة نبيلة ابراهيم. القاهرة.

لين، أدوار. 1975. المصريون المحدثون. . ترجمة عدلي نور. القاهرة.

مرسي، أحمد .1987. في: الفنون الشعبية. العدد 18 القاهرة.

مري، مرجريت. 1957. مصر ومجدها الغابر. ترجمة محرم كمال. القاهرة.

المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي.1270 هـ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. بولاق.

نظير، وليم. 1976. العادات المصرية بين الأمس واليوم. القاهرة.